نبيل سليمان*

جنون السلام

في نيسان/ أبريل ١٩٩٢ انعقد في أنقرة مؤتمرٌ شعارُهُ «الوضع الراهن وآفاق علاقات تركية الثنائية مع إسرائيل». وقد قدم جاكوب م. لاوندا في المؤتمر دراسةً عنوانها «العلاقات التركية الإسرائيلية الثقافية والعلمية في الحاضر والمستقبل». ومنها ينقل إحسان غورقان قولَ لاوندا: «الثقافة والعلم، وإن لم يكونا في الاهتمام الأوّل لدى العديد من الحكومات، فإنهما في نهاية الأمر ذوا شأن عظيم، ولهما تأثير كبير في العلاقات الإنسانية على أساس: من شخص إلى شخص. وهذا من العوامل الحاسمة في العلاقات حتى بين الدول. وفي حالات عدّة تقرّر العلاقات الشخصية بين الناس طبيعةَ العالم الجديد ومستقبلَ العلاقات الدولية أيضاً».

وقد بات من المعلوم أنّ ثلّةً من المثقفين أدّتْ دوراً أساسياً في بداية الطريق إلى اتفاق أوسلو وفي ثناياه. فحسب رواية ماريك هالتر (اليهودي) وإريك لوران في كتابهما **مجانين السلام** فقد كانت الخطوة الأولى نحو اتفاق أوسلو لأستاذيْن للتاريخ في جامعة حيفا أنْشَآ مع يوسي بيلين مركزَ أبحاثٍ صغيراً باسم مركز التعاون الاقتصادي. وأوّل هذين الأستاذين هو يائير هرشفيلد الذي تكنُّ له حنان عشراوي بالغَ الاحترام، وهي مَنْ أوحى لأبي العلاء قريْع بلقائه في لندن أواخر عام ١٩٩٢. وأمّا الأستاذ الآخر فهو رون بونديك.

وكما يتابع مؤلّفا **مجانين السلام**، فإن هذين الأُسْتاذيْن لم يتلقّيا الدعوةَ إلى حضور الاحتفال بتوقيع اتفاق أوسلو في ١٩٩٣/٩/١٣ في واشنطن، على الرغم من فضلهما الكبير(!)

وبحسب رواية محمود عبّاس (أبو مازن) فقد كان الشاعر محمود درويش عضوَ لجنةِ متابعةِ مفاوضاتِ واشنطن، كما كان مطّلعاً بشكل عام على مفاوضات أوسلو، وكان يحضّ محمود

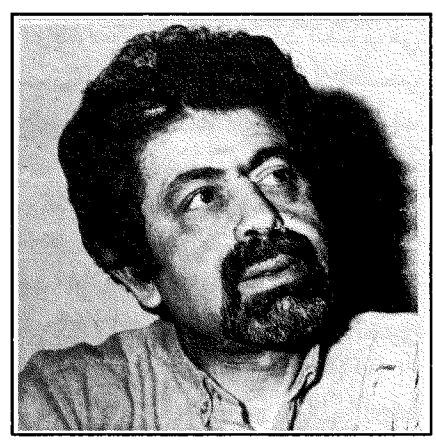

هاني الراهب

عبّاس على المثابرة. ويؤكد عبّاس أنه قد تمّ في روما في ١٩٩٣/٧/١٣ لقاءٌ بين محمود درويش ووزيرة التربية الإسرائيلية شولاميت ألوني. وليس سراً - ولا هيّناً - بعد هذا، أو على الرغم من هذا، ما آل إليه موقفُ درويش وعشراوي - بل ومحمود عبّاس نفسه - من معارضة لاتفاق أوسلو وما نجم عنه في الواقع الفلسطيني.

هكذا، ومن حقيقة الدور الذي تؤديه الثقافةُ في الشأن العام -- ومنه صناعة الحرب وصناعة السلام -- نرى كيف عصفَ ويعصف جنونُ السلام في هذه الأيام ببعض المثقفين العرب، المؤيِّد منهم والمعارض، وبالمعنى المجازي والمرضي للجنون... لكأنّ عَصْفَ الجنون بالسياسيّ وحدَهُ لا يكفي!

لقد كان في هذا العصف ما كان من خطبٍ ومواقف لكثرةٍ من المثقفين العرب إزاء السلام والتطبيع الثقافي وغير الثقافي، وقد يكون القادمُ أدهى. وهذا ما سمّى بعضَه هاني الراهب بآخر المعارك الخاسرة، وذلك فيما كتبه في مجلة **العربي** في آذار/مارس المنصرم(*). ولأن هاني الراهب روائي كبير، وأستاذ جامعي كبير، ولأنّ ما كتبه خطير، فإنّ درْس ما كتبَه سيكون مناطَ ما يلي.

ماذا بعد المعركة الخاسرة؟

وأبتدئ بالدعاء إلى أن تصدق رؤيةُ هاني الراهب في أن تكون ضجّةُ التطبيع الثقافي مع إسرائيل آخرَ المعارك الخاسرة. لكنّ السؤال يسبق الرؤيةَ والدعاءَ إلى ما بعد المعركة الأخيرة الخاسرة: أهو هذا السلام الإسرائيلي الأمريكي الذي نشهدهُ، وهو السلام الذي يلفح مقالةَ هاني الراهب المذكورة، أم ماذا؟

وإنما يسبق السؤالَ الدعاءُ لأن هاني الراهب يؤسس رؤيته هذه على الغالب في نقيض ما يقوم به وعليه عالَمُهُ الروائيُّ، حيث الجذرُ الفلسطيني والقومي العربي هو أهم جذور ذلك العالم. فمنذ ثلاثين

(*) روائي وناقد أدبي وصاحب دار نشر هي «دار الحوار» في اللاذقية.

(*) راجع «وثائق» في نهاية هذا العدد (**الآداب**).

سنة شغلتِ المسألةُ الفلسطينيةُ، ومسألةُ الصراع العربي الإسرائيلي، والهويةُ والتحرير والحربُ والعدلُ والعملُ الفدائيُّ والوحدةُ العربيّةُ والمؤسّسةُ الحاكمةُ العربيّةُ والقوميّةُ العربيّةُ، وشغلت الشخصيات الروائيّة الفلسطينية والسورية - خاصة - عالمَ روايات هاني الراهب. وفيما عدا رواية **التلال** فقد كان هذا الانشغال صريحاً وجهيراً على الدوام. بل إنه كثيراً ما تأذّت العمارةُ الفنية الحداثية البديعة لهاني الراهب بصراخية ذلك الانشغال. وليست لعبة اللاتعيين، ولعبةُ اسم العلم الروائي (للبشر وللمكان) مما راهنت **التلال** عليه، بعيدةً عن ذلك الذي قدمته رواياتُ **شرخ في تاريخ طويل** أو **ألف ليلة وليلتان** أو **الوباء** أو **بلد واحد هو العالم**.

وبالطبع، فليست هذه المرّة الأولى، ولن تكون الأخيرة، التي يتناقض فيها خطابُ النصّ الإبداعي مع صاحبه. فمنذ بلزاك إلى شتاينبيك إلى عاموس عوز - الذي يستشهد به هاني الراهب - إلى إميل حبيبي وأدونيس... يتواصل ويتفتق هذا التناقض، ليضاعِفَ عبءَ مواطن المبدع وقارئه المعاصر له، وليكون عبرةً أو على الأقلّ أنموذجاً للدرس لمواطنٍ وقارئٍ آخرَيْن في غير زمن المبدع. ولذلك فإنّ السؤال المتقدّم لا يتّجه إلى مبدَعَات هاني الراهب إلا ليُشْهدها عليه، وليتدرّع بها في وجه جنون اليوم وضجّته.

وجْهَةُ السؤال والدرس، إذن، هي إلى ما كتبه هاني الراهب أخيراً - ولعلّه آخراً - في شؤون وشجون التطبيع الثقافي وغير الثقافي، والسلام الثقافي وغير الثقافي، وفي اللّغة والآخر وأمريكا... وماذا أيضاً، وكل ذلك في صفحاتٍ معدودةٍ؟

اللغة

المعركة الخاسرة بحسب هاني الراهب هي معركةُ اللّغة ضد التطبيع

من بلزاك وشتاينبك وعاموس عوز إلى إميل حبيبي وأدونيس وهاني الراهب يتناقض خطابُ النصّ الإبداعي مع خطاب المقالة السياسية!

الثقافي. وفي تشخيصه لأطراف هذه المعركة وأدواتها، ولتأكيد حسمه لنتيجتها بالخسران منذ الآن، يضرب أمثلةً من مفردات معارضي التطبيع: «هذا العار»، «هذا الشرّ»، «هذه الهزيمة» على آخر الجبهات. ويشخّص الموقفَ الانفعاليَّ لدى مؤيّدي التطبيع ومعارضيه. ولقد برهنت الشهورُ القليلةُ الأخيرة على مصداقية هذا التشخيص عبر «طوشة» فصل أدونيس من اتّحاد الكتّاب العرب في سورية. لكنّ المصداقية هذه لا تنسحب على الجميع. فإذا كانت اللغةُ القديمةُ قد هجمت وتجدّدت قامعةً ومخوِّنةً ونادبةً ومكبّرةً ومهوِّلةً على يد بعض مؤيّدي التطبيع ومعارضيه على حدّ سواء، وإذا كان الزلق الإنشائي والسياسي قد برز في تلك «الطوشة»، فإنّ ثمّة لغةً أخرى تكاد لا تُسمع ولا تُقرأ.

لقد كانت اللّغةُ شاغلاً أساسياً لكتابة هاني الراهب الروائية. وعلى هذا المستوى كانت له بصماتُهُ الخاصّة على الرواية العربيّة. لكنّ لغة الرواية بالتأكيد هي غير لغة مقالتِهِ عن التطبيع. واللّغة العربية الآن كما ينعى هاني الراهب هي في انهيار تدريجي حزين، فلماذا؟

يذهب السارد في رواية **التلال** إلى أن شِبهَ قاموس جديد قد وُلِد مع الدولة الجديدة. وكما هو معلوم، فقد وُلِد مع الرواية الحداثية التي كتبها هاني الراهب شبه قاموس جديد أيضاً. واليوم، ومع السلام الأمريكي الإسرائيلي الهاجم، يولَد شبهُ قاموس جديد. فهل تكون اللّغةُ العربيّةُ هي التي تقول لنا هذا السلام، أم أننا نحن مَنْ يُغنيها أو يَلويها أو يُطوِّرها أو يعهِّرها؟ وهل هذا هو المستوى الذي يصحُّ فيه القولُ بتشكيل اللّغة لحاملها؟ أم أنّه مستوى آخر تُفْسَرُ عليه اللغةُ كما يُفْسَرُ الفنُّ أو الوجدانُ أو الحدودُ أو الذاكرة؟ وأين هذا كلُّهُ من ترداد هاني الراهب للمأثور: مَنْ تعلّم لغةَ قوم أَمِنَ شرَّهُمْ؟ لقد جاء في المأثور أيضاً: كلمة حق يراد بها باطل، فعسى ألاّ يصحّ هذا المأثور هنا!

التطبيع

لماذا لم يبدأ التطبيع عام ١٩٤٥، أي قبيل قيام إسرائيل؟ لماذا لم يخطرْ على بالنا أن نعرف إسرائيل عندما كانت تلك المعرفة جزءاً من مسألة حياة تاريخية أو موت تاريخي؟

إنها مِنْ أسئلة هاني الراهب، وهو يتقدّم إلى تحديد مفردة «التطبيع» التي تزداد التباساً بازدياد غزْل المثقفين المؤيّدين والمعارضين عليها، أضعاف ما يفعل بها غزْلُ السياسيين المؤيّدين والمعارضين.

ليست الصيغةُ الاستفهامية طلباً لعلم بمجهول فحسب، بل قد تكون أيضاً تعجّباً أو استنكاراً أو تحريضاً، إلى آخر ما تقوله البلاغةُ العربيةُ العتيدةُ بقديمها وجديدها. فأيٌّ مِنْ هذه الوجوه تحتمل أسئلةُ هاني الراهب؟ هل تشير إلى جهل أو قصور أو عطب أو تخلُّفٍ في معالجتنا، قبل قرنٍ على الصراع العربي الإسرائيلي أوْ منذ منتصفه؟ فإنْ كان هذا هو ما تشير إليه فمَنْ هو الذي مايزالُ يماري، سواء أكان مزاوداً على السلام الأمريكي الإسرائيلي الراهن والقادم مؤسِّساً له أو متهماً إيّاه... أم مؤسّساً لتجاوز علل الماضي نحو بدائل عقلانية وحضارية و.. عادلة؟

إن معرفة إسرائيل لاتزال جزءاً من مسألة حياة تاريخية أو موت تاريخي، ولم

تكن كذلك في الماضي فقط كما يقول هاني الراهب. ولكن هل التطبيع هو معرفة فكر الآخر الإسرائيلي وثقافته فحسب، ممّا فاتنا منذ نصف قرن؟ وبالتالي، فهل تكون أسئلة هاني الراهب مجرَّد دعوةٍ إلى معرفة فكر الآخر وثقافته ولغته حتى نأمن شرّه، أم أنّها الحسرة التي تجعر هذه الأيام - بشماتة أو من دونها - على التأخّر في التطبيع، وعلى ما جرّ ذلك من هَدْرٍ في المال والدم والأرض طوال نصف قرن؟

لقد كان لهاني الراهب فضلٌ مبكّر في ترجمة رواية يائيل دايان **غبار**، سواء استنكر محمود درويش ذلك ذات يوم، أم يستنكره سواه هذا اليومَ. لكنّ هاني الراهب يتابع أسئلته السابقة عن تأخّرنا في التطبيع، فإذا بالتطبيع قد «خطر» على بالنا الآن، بعدما انهزَمَ طَرَفا الصراع العربي الإسرائيلي، وربحت أمريكا حروبَها الخمس!

ليس سؤال التطبيع الآن إذن، وأيّاً يكن الموقف منه، سوى خاطرٍ خطر بعد هزيمتنا وهزيمة إسرائيل أمام أمريكا. أهي مزحة لطيفة أم سمجة من هاني الراهب، أم هي عودة إلى اللّغة التي نقضتها بفنّها الرفيع وخطابها الصادح روايةُ **ألف ليلة وليلتان**؟

في تلك اللّغة: لغة ما قبل ١٩٦٧، ولغة هاني الراهب الآن، لسنا مهزومين أمام إسرائيل، لا في عام ١٩٤٨ ولا في أعوام ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢، وتلك هي على ما أحسب الحروبُ الخمسُ المعنية. فَمَثَلُنا إذن مَثَلُ إسرائيل: كلانا هزمه جبّارٌ آخر. فَمَنْ هي المسكينة الأجدرُ بالعطف والرثاء: اللّغةُ العربية، أمْ إسرائيل؟ وبحسب هاني الراهب، فإنّ المشروع العربي مَثَلُهُ مَثَلُ المشروع الصهيوني اليوم: مهزوم. والحلم العربي مثله مثل الحلم الصهيوني: مهزوم. ولا خوف، بَعْدُ، من المشروع الصهيوني والحلم الصهيوني. وهكذا يغلق هاني الراهب الجراحَ، على العكس ممّا يفعله إبداعُهُ، ويدغدغ ويربّت نازلاً علينا بالنوم الهنيء، فيقول: «هذا الحلم يتقلّص كبالون مثقوب مكتفياً بتحقيق واحد على عشرين من اتّساعه الأوّل وفارضاً على إسرائيل رسمَ حدودها لأوّل مرّة في تاريخها. فأيُّ الحلمين استطاع أن يمتطي صهوة التاريخ؟». وبالطبع فالمهادُ المخادع يقود إلى سؤال مخادع فجواب مخادع. وتتخلّق عبر هذه السلسلة اللغةُ القديمةُ في تضخيمها العدوَّ أو الآخر أو في تهوينهما.. ويمضي هاني الراهب إلى ما يراه حقيقةَ الأمر، وهي خسران الطرفين معاً: فنحن وإسرائيل ملاكمان تعادلا

هل صحيح أنّ العرب وإسرائيل طرفان خاسران أمام أمريكا؟ وهل صحيح أنّ السلام الحالي هزيمة كبرى للمشروع الصهيوني؟!

أخيراً بالنقاط، وهذا - بالمناسبة - قول تردَّدَ بجهارة ووجاهة أكبر في أعقاب حرب ١٩٧٣.

إنها مخادعة أخرى للذات في معرفة العدوّ أو الآخر، وفي تحديدهما. ولستُ أدري إن كان هاني الراهب لايزال متمسّكاً بما سبق أنْ كتبه، ولاسيّما أنّ أمريكا قد استخدمت - بعد أسابيع فحسب مِنْ كتابة مقالته - حقّ الفيتو لِتَحولَ دون إدانة مصادرة إسرائيل لأراضٍ جديدة في القدس. فهل كانت معركةُ هذه الأراضي جولةً إسرائيلية خاسرةً أمام أمريكا، كما كانت عربيّاً؟ أمْ أنّ القدس والأرض والأسلحة النووية ليست مفاصل في المشروع الصهيوني والحلم الصهيوني؟ وإذا صحّ بعضُ هذا القول فلِمَ لايزال شعار إسرائيل الكبرى «من النيل إلى الفرات» يزيّن الكنيست؟ وهل هي مزحةٌ أخرى أن يُقال إنّ نزع ذلك الشعار عن الكنيست قد بات قريباً، ولكنْ لتحلّ محلّه الهيمنةُ من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، بالشرق أوسطية أو بغيرها؟

في مثل هذه اللغة القديمة تبدو مقولةُ السادات، بأنّ ٩٩٪ من الأوراق في يد أمريكا، في رَجْع جديد. وبحسب هذه اللّغة - وهذا هو أهمُّ من مخادعة الذات ومن الرجع الساداتي - فإنّ السلام الذي تمّ تحقيقه الآن في الشرق العربي هو هزيمةٌ كبرى للمشروع الصهيوني؛ وهذا ما ينصّ عليه هاني الراهب. ومن الطبيعي - بالتالي - أن تقود مقدماتٌ كهذه إلى نهايتها المنطقية، ألا وهي الدعوة إلى التطبيع الثقافي... ولكن ليس الآن، بل بعد حين عندما يستتبّ السلامُ في الشرق العربي. ومرّة أخرى يأتي هاني الراهب بقفلة مفحمة ومحكمة في صيغة السؤال، فيقول: «والسؤال الأخير هو بعد أن يتمّ استتبابُ السلام في الشرق العربي، ما الحكمة في أن تظلّ الثقافة في حالة حرب؟».

ليس الحديث هنا عن سلام آخر سوف يأتي في يوم من الأيام حاملاً العدل، مادام الإنسان يحلم بالعدل ويناضل من أجل الحلم. الحديث هنا هو عمّا يُصنع من السلام الآن، عن سلام هذه الأيام، عن السلام الأمريكي الإسرائيلي. وهاني الراهب ينزع الحكمةَ عن مقاومة الثقافة لهذا السلام بعدُ أن يستتب. ولكن ماذا لو انقلب السِّحرُ على الساحر، وقامت انتفاضةٌ أخرى في فلسطين أو في غير فلسطين؟ ماذا لو أن آخرين مهما قلّوا وضَعُفوا ظلّوا يحلمون بالعدل والديمقراطية والوحدة، ويناضلون مِنْ أجل الحلم، ويُورثونه؟ ماذا لو استمرّ النخرُ والتفجُّرُ في الجسد الأمريكي، وحلت - كما «يهرف» بعضهم - البيروسترويكا الأمريكيةُ؟ ماذا لو لم يستتب هذا السلامُ - الاستسلام، وهو

الذي يحمل في صُلْبِهِ ما ينسفُهُ، فضلاً عن محمولات المتغيّرات المحتومة الآتية، ابتداءً بالحراك الدولي وبصياغة غير أمريكية للعالم، وليس انتهاءً بتداول أي من سلطاتِ صنّاع السلام، ولا بآخر رواية كتبها هاني الراهب نفسه؟

أما إنْ بَطَلَتْ هذه الأسئلة، وبدتْ ساذجةً ومغفّلةً ومتخلّفةً عن الركب الحداثي وما بعد الحداثي، وكان استتباب هذا السلام محتوماً، فلماذا تتبعه الثقافة... علماً أنّ هذا «السلام» يصنَعُهُ مَنْ ينعتهم هاني الراهب نفسُهُ بالنعوت غير الحميدة: من الصانع الأمريكي إلى الصانع الإسرائيلي إلى الصانع العربي؟ ولماذا يثور هاني الراهب على من يعارضون التطبيعَ الثقافيَّ، الآن على الأقلّ، مادام سؤاله الختامي - القفلة المفحمة المحكمة - يترك فسحةً ريثما يتحقّق الاستتباب لهذا السلام - الاستسلام العتيد؟

أغاليط الأغاليط والموقف السحري

بعد صيغة السؤال تأتي صيغة التقرير في تحديد هاني الراهب لمفردة/مصطلح «التطبيع»، فينصّ على أنّها تعني إقامة علاقة طبيعية، لا العودة إلى وضع طبيعي - كما أشار لطفي الخولي - في ظروف تفتقر إلى أيّة خاصيّة طبيعية. ويقول: و«بمعنى آخر فإنّنا مدعوون إلى إقامة صداقة ثقافية، إلى إقامة حوار بنّاءٍ نصل بموجبه إلى اتّفاق سلام ثقافي معها، مثلما نحن موشكون على الوصول إلى سلام عسكري وسياسي». ويردف ذلك بتحديد الأغاليط البالغة الجدية التي علينا معرفتها، وأولاها أنّ جوهر الصراع القائم في الشرق العربي منذ أربعة وعشرين قرناً هو الصراع بين الشمال والجنوب. وأمّا الأغاليط الأخرى برأيه فهي: رفضُ الآخر، وترتيبُ الحياة في أنساق صارمة، والموقف السحري لدى بعض المثقّفين العرب من التطبيع الثقافي.

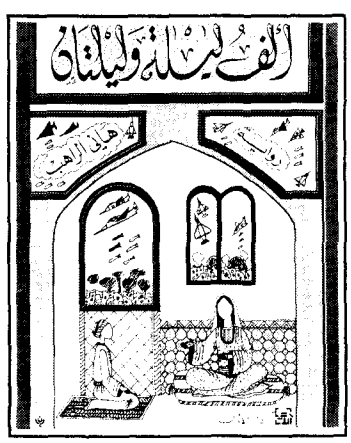

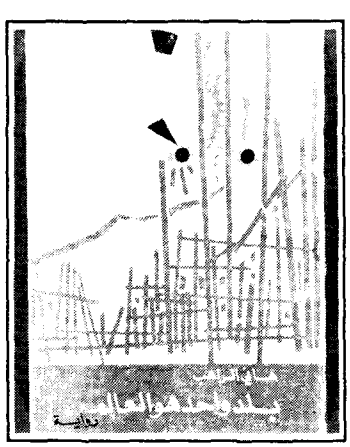

يسوق هاني الراهب في الأغلوطة الأولى الاسمَ القديمَ (شرق/غرب) بواحدة من حُلَلِهِ الكونية المعاصرة (شمال/جنوب). وفي هذه الحلة ينفجر الصراع العربيّ الصهيوني بإرادة مصالح الشمال، كما يُفرض السلام، لتأمين هذه المصالح ووأد النهضة العربية. ولا يبدو في هذه الأغلوطة ولا في تالياتها ما يحدد الصراعَ العربيَّ الصهيونيَ بغير ذلك. وبذلك تقوم في هذا التحديد للأغاليط الأغلوطةُ الأولى التي تتجاهل ذاتيةَ المشروع الصهيوني، على الرغم من الصحة والدقّة في تشخيص الدور الشمالي - أو الغربي - في جذر المشروع الصهيوني ومسارِهِ، وفي الصراع العربي الصهيوني.

وكما سبق آخرون كلاً من هاني الراهب ولطفي الخولي في ذينك التحديدين للتطبيع، فإنّ ثمّة من سبقهما إلى النظر في جديد الصراع العربي الصهيوني ومستقبله استناداً على مفهوم شمال/ جنوب. وأذكر من هؤلاء: محمد جمال باروت الذي ذهب إلى أنّ الشرق أوسطيّة الجديدة هي تحويل إسرائيل إلى مركز في محيط مقهور ومتخلّف؛ وهو ما يعني شماليةَ إسرائيل وتكاملها مع الأمم المركزية في الشمال، مقابل جنوبية شرق أوسطنا.

ويمضي باروت إلى أن هذا التحويل هو تحويل جذري للمشروع الإسرائيلي - لا هزيمة كبرى أو تاريخية له كما يرى الراهب: من «سيطرة» ومن تحقيق للحلم التوراتي بإسرائيل الكبرى، إلى مشروع «الأوفشورية» OFFSHORE الإسرائيلية للمنطقة، أي قيام مناطق أوفشورية ورؤوس جسور للمركز الجديد تتعدّى نطاق الدولة / الأمّة وتتخطّاه. وهكذا تقوم علاقات كونفدرالية - وأضيف: أو سواها - بين أوفشوريات المنطقة تحت الهيمنة الإسرائيلية. وبهذا تكون نقلة

المشروع الإسرائيلي من السيطرة (الاستعمار الكلاسيكي: الاحتلال والاستيطان) إلى الهيمنة (الاستعمار الداخلي). وستتمزّق بالتالي روابط الدولة / الأمّة الواهية حالياً (مجلة **الهدف** الفلسطينية ٩٣/٤/١١ - دمشق).

وبالعودة إلى الأغاليط التي حدّدها هاني الراهب، لا يبدو المسكوت عنه في الأغلوطة المتعلّقة بالآخر بعيداً عمّا تَقَدَّم في صحة الأغلوطة الأولى أوْ دقَّتِها، وتجاهلها في الآن نفسه لعنصر أساسي آخر. فالقول بالآخر الإسرائيلي لا تكفي معه الصحة والدقّة في تشخيص عللنا الثقافية والنفسية والحضارية تجاه الآخر عامة.

وإذا كان الأمر كذلك في الأغلوطتين الأوليين، فإنّ الأغاليط لتجهر في أغلوطة الموقف السحري لبعض المثقّفين العرب من التطبيع الثقافي.

ها هنا يقرّر هاني الراهب أنه سيكون صعباً على عربيّ صالح أن يتصوَّرَ نفسَه في أية حالة من حالات التطبيع. وعلى الرغم من التباس كلمة «صالح» فإن هذا التقرير ينسف دعوة الراهب إلى التطبيع الثقافي. ولكي لا يزداد الأمر برمَّتِهِ التباساً، فإن نَسْفَ دعوة التطبيع يبدو هنا لازمةً من لوازم شطارة اللّغة والبلاغة والصيغة الاستفهامية، وصولاً إلى الصيغة التقريرية سواء شُفِعَتْ بأداة توكيدية أم تسويفية. وليس نسف الدعوة إلى التطبيع إذن قصداً للخطاب ولا لجلجةً فيه، خاصةً إنْ وُضِعَتْ في السياق الأكبر لها، وهو السياق الذي ابتدأ على الأقلّ منذ كامب ديفيد. بل إن هذا السياق، ولاسيّما بعد اتفاق أوسلو، قد عوّدنا على أسلوبية ماكرة تزداد [مكراً] بصعوبة التطبيع وبسواها. فالتطبيع لا يبدو طيّب المذاق حتى على بعض دعاته. أما العربيّ (الصالح والطالح معاً) فيتابع مع هاني الراهب تقريره أن تلّ أبيب ابتلعت مدينةً كنعانيةً

عاموس عوز ليس نموذجاً للإسرئيلي «الآخر» كما توهّم هاني الراهب. بل قد أدّى خدمته العسكرية في الجولان وهتف قائلاً: «إنّ أوسلو هو ثاني أكبر انتصار لنا بعد قيام إسرائيل»!

عمرُها اثنان وأربعون قرناً واسمها يافا، ثم يتابع أنّ الحركة الصهيونية قد حقّقتْ إنجازاً فريداً من نوعه في التاريخ الثقافي للشعوب، ألا وهو إحياء اللّغة الكنعانية التي تعلّمها اليهودُ في الألف الثانية قبل الميلاد.

يتساءل القارئ العربيُّ وغيرُ العربي، الصالح والطالح، عن الحق التاريخي المزعوم إذن لإسرائيل والصهيونية في فلسطين الكنعانية، في أرض «كنعان» السوري والفلسطيني/بطل رواية **الوباء**. وتشتبه القراءة بنسف جديد للدعوة إلى التطبيع، أيّاً كان مطلقها، وبناءً على اللّغة والتاريخ. لكن القراءة أيضاً تتساءل عن ذلك «الإنجاز» الصهيوني الفريد في التاريخ الثقافي للشعوب، حين تَرَى إلى إحياء عشرات اللّغات فيما كان يُسَمَّى بـ«الاتحاد السوفياتي»؟ وماذا سوف يقال بعد عقود قليلة - جداً على الأرجح - عن الكردية والأمازيغية؟ وإذا صحّ قليل أو كثير من مقارنة هذا الإنجاز الصهيوني بسواه، فلِمَ تمجيده واتخاذ موقف سحريّ منه، وبخاصة أنه محمول على العنصريّ

لئن هزمونا وفرضوا علينا «سلامهم» فهل نطبّع معهم ونبارك لهم بفلسطين والمخا... أم نمتلك على الأقلّ «تواضُعَ المتفرّجين»؟!

وتزوير التاريخ وعلى الاستعمار، لا على ما يناقض هذه الحمولة من القيم الثقافية والحضارية للشعوب الأخرى واللغات الأخرى؟

وأخيراً فإنّ في إسرائيل حقاً - كما قال هاني الراهب - أدباء مرموقين، ومنهم صهاينة متغطرسون، ومنهم مَنْ ليسوا كذلك. لكنّ الأخيرين - سواء من ضرب بهم هاني الراهب مثلاً أم سواهم - ليسوا كما يراهم الموقفُ السحريّ: نموذجاً ساطعاً للآخر الذي ينطلق من مكان آخر بمفهوم آخر ومحاجَّة أخرى، إلاّ إذا كانت النمذجةُ الساطعةُ هنا قائمةً في تهذيب الذات الصهيونية وفي «أَسْرَلَتها». فعاموس عوز - وهو أنموذج آخر من نماذج هاني الراهب - الذي أدّى خدمته الإلزامية على جبهة الجولان في عام ١٩٧٣، وكتب رواية **ميخائيلي**، هو نفسه من هتف في تصريح لهيئة الإذاعة البريطانية في اليوم الثاني لتوقيع اتفاق أوسلو: هذا ثاني أكبر انتصار بعد قيام الدولة! وإذا صحّ ما نقل دايفيد غروسمان - وهو مثل عاموس عوز في معارضته للغطرسة الصهيونية - عن المستوطن يوئيل بن نون، حيث عقّب هذا على لقائه بعوز في «عوفرة» قائلاً: «لا تفصل بيننا هوّةٌ. ليس بيننا صراعٌ أيديولوجي. والنقاش بيننا يدور حول حدود إمكانات المشروع الصهيوني اليوم»... إذا صحّ ذلك، ولم يكن فهماً خاطئاً من المستوطن ولا تذاكياً من «عوز» عليه، فإنّ النمذجة الساطعة تخبو، حتى لو أكّد غروسمان إثر ما نقله على أنّ الهوّة قائمة بين المستوطنين من جهة وبينه وأمثاله من جهة أخرى.

هل كانت عثرةً من عاموس عوز بأن يقول إنّ اتّفاق أوسلو أعطى لإسرائيل ما لم يعطه الاحتلال؟ وبعيداً وقريباً من عوز وأمثاله من الإسرائيليين ومن العرب المتأسرلين داخل إسرائيل وخارجها، فإن الدعوة إلى المعرفة الواضحة والدقيقة

للثقافة اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، وكلّ ثقافةٍ لكلّ آخر، هي ضرورة حقّاً.. وهي حقاً لا تعني التخلّي عن المنطلقات والمكوّنات الأساسية لثقافتنا العربية. لكنّ هذه الدعوة في السياق والكيفيّة اللذين قدّمَها بهما هاني الراهب تنتسب إلى الموقف السحري الذي أخذه على بعض المثقّفين العرب من التطبيع. وهو الموقف الذي لا يشكّل علامةً لكثيرين من معارضي التطبيع فحسب، بل قد يكون في المقام الأوّل علامةً على كثيرين من مؤيّديه أيضاً. ولن تنسينا ضرورةُ معرفة الآخر بعضَ ملابسات جائرة نوبل ممّا بات ملكاً للتاريخ؛ والأهمّ أنها لن تنسينا بحال أنّ هاني الراهب نفسه قد قدم للرواية وللبشرية عَبْرَ فنّه ما هو أجدرُ بنوبل وبسواها ممّا قدّم شموئيل عجنون. وسواء أتدرّعتْ روايةُ عجنون بنوبل أمْ بصرخةٍ لرابين تريد للبحر أن يبتلع غزّة، فلن ننسى بحالٍ الحلمَ الروائيَّ لعجنون بطريق دمشق - أتراه حلماً روائياً وحسب؟ - ... والعهد بالأدب الرفيع أن يكون إنسانياً لا استعمارياً.

تواضع المتفرّجين

في رواية **بلد واحد هو العالم** لهاني الراهب يخاطب الزول سعدون قائلاً: «المهم أن يقف الإنسان في قلب الصراع. وإذا اختار الوقوف على طرف، فخلّهِ على الأقل يمتلك تواضعَ المتفرجين، لا أن يعتبر نفسه حكماً ومرجعاً». فهل تخاطب، الآن، الشخصيةُ الروائيّةُ مبدِعَها؟ وأما الحكم والمرجع فقد صاغهما المبدعُ نفسُه في رواية **التلال**، حيث تقول: «لعلّ أعمق ما استبقاه الإنسانُ من عصر مشاعيته هو الحسّ بالوطن، بالمدى الحرّ المباح للحركة، واللقاء والحب والكراهية والائتلاف والاختلاف والفرح والبكاء والحياة والموت. إنه تلك الطمأنينة والراحة والسعة، ذلك الوثوق، الوجود المرشوش بطعم الذكريات، إنه الذي ليس خارطة وحسب في الجغرافية، ولا شكلاً وحسب في الهندسة، بل فضاء مسكونٌ بالأسلاف والنهر والتلال والقمر والضحكات والوجع، بالتوق والحلم، [هو] المكان المعادي للغربة، المتشابك الخناصر مع الدنيا، المغلق دون التهديد، المفتوح للشجاعة والخطر والفاكهة والشراهة والبقاء».

إنه الوطن الذي فعلت المؤسسةُ العربيةُ الحاكمة ما فعلت به، وفعلتْ ما فعلت بعلاقة المواطن به، ففاق فعلُها ما كان من الاستعمار - ومنه الصهيوني - نفسه. هُوَذَا المرجعُ والحكم. والسؤال الأخير هو التالي: أليس الوطن هو

التركيع هو السبيل الأمثل للتطبيع، ونفي الاختلاف والتعدّد هو سببُ هزال شعار «مقاومة التطبيع»!

فلسطينَ لُبْنَى ومَجْد وأمّ عبُّودة وأمّ خَلَف وكنعان وغيرهم من المبدَعَات الروائية لهاني الراهب؟ وهل فلسطين هذه هي وطن عاموس عوز - حتى لا أقول رابين - أم هي إسرائيل أم ماذا؟ هل صارت أوروبا الجديدة - كمّا سمّت روايةُ **التلال** إسرائيلَ - وطناً للمخويين البيض بفضل سلام/ استسلام هذه الأيام؟ ولئن هزمونا أو هزمنا الجبّارُ الأمريكي، وفرضَتْ علينا مصالحُهُ السلامَ معهم، فهل علينا أن نبارك لهم بالمحا أو بفلسطين أو بالوطن، ونطبّعَ حتى لو طبّع الراكعون والمركّعون، المنتصرُ منهم والمهزوم... أم ترانا نمتلك على الأقلّ «تواضع المتفرجين»؟

***

حاشية

لقد كنت أؤثر أن أنتهي عند هذه النقطة لولا أنّني أخشى أن يشتبِه ما قدّمْتُه أو بعضُ ما قدّمتُه ههُنا، بما هجمتْ وتهجم به اللغةُ القامعةُ القديمةُ والجديدة، المحدودة والرحيبة، سواء في خطاب بعض المثقفين الأفراد أم في خطاب أغلب المؤسسات الثقافية الرسمية (الدولتية) وشبه الرسمية، وصولاً إلى ممارسات بعينها، حيث يخرج الأمرُ في ذلك كلّه من الحوار والخلاف الثقافي الجاد والمسؤول، من مستوى الصراع الثقافي، إلى مستوى الاتهام الرخيص بالتخوين - وما أدراك ما التخوين -... وكل ذلك بسرعة خاطفة وسهولة مريعة.

لذلك أؤكد أنني بقدر ما أختلف مع هاني الراهب - وهو ما لعلّه قد تجلّى فيما تقدّم - فإنّني أختلف أيضاً مع اللّغة القامعة القديمة والجديدة، المحدودة.

ولقد سبق لي أن قلت بصدد «طوشة» أدونيس: لا كبير فوق الوطن، وكل شيء في وقته حلو، والتركيع هو السبيل الأمثل للتطبيع، ونفي الاختلاف والتعدّد والحوار هو ما سبّب هزال مقاومة التطبيع. وأحسب أن التذكير بذلك كلّه ضروري لهذا الختام ولسواه. وحين يذهب هاني الراهب أو أدونيس أو سواهما أبعد ممّا ذهبوا إليه، فسيذهب الخلاف معهم أبعد. وعلى خطاب الخلاف وأدوات هذا الصراع أن تتدرّج وتتنوّع. وفي صميم ذلك تأتي الديمقراطية، والمسؤولية التاريخية للكلمة ولصاحبها، ويأتي الضمير وتأتي ممارسة المواطن لمواطنيته... وقد تكون للكلام صلة.

اللاذقية / سوريا